

التأويل والتضادالقيمي في ظل الإعلام الجديد

قراءة في فكر عزي وكليفورد غريتش، يورغان هابرماس، نيتشه
-مقاربة في نظرية الحتمية القيمية-

د/ عبد الله ثاني محمد النذير
جامعة مستغانم

تمهيد:

أصبح الرهان على القيم مسألة تثير الجدل بالنسبة لهوية المجتمعات العربية، فالإطار التي تسبح فيه هذه القيم أصبح محددًا ومهددًا من طرف التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال وخاصة مواقع التواصل الاجتماعي التي أصبحت مصيدة لمحاربة القيم الأصيلة التي نص عليها النص المقدس، وبالتالي ماهي الأدوات والمناهج المتبعة لمواجهة هذا الرهان القيمي المتواجد في ظل الفضاءات الجديدة للإعلام الجديد. فالسؤال المطروح في ظل السياقات الجديدة للإعلام هو تلقي القيم عبر هذه الوسائط الاجتماعية الحاملة لقيم متضادة لا تعبر عن أصالة المجتمعات العربية وخاصة عند تناولها وتفاعلها القيمي الاجتماعي الخاضع لمبدأ التضاد القيمي فالى أي مدى تؤول الخطابات الاجتماعية عبر مواقع التواصل الاجتماعي من طرف القائمين بالاتصال الاجتماعي وما مدى وعي النخبة و الفاعلين بقضية القيم لتأطير هذا الفضاء الإعلامي الجديد وتعزيز مسار القيم الأصيلة للمجتمعات العربية؟
فن خلال منظومة المفاهيم القيمية ومخارج نظرية الحتمية القيمية أود الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال قراءة عزي بقراءة كليفورد غريتش،يورغان هابرماس، نيتشه، وجورج لوكاش للقيم بالتركيز في هذه الورقة على ثلاث مفاهيم ألى وهي التأويل القيمي والتضاد القيمي المنتج للأزمة القيمية في ظل الإعلاك الجديد.

تحديد الإطار المفاهيمي:

1- التأويل القيمي:

لا يمكن التطرق إلى التأويل القيمي بدون الحديث عن الأنثروبولوجية التأويلية (Interpretive Anthropology) التي أشار إليها كليفورد غريتش في مؤلفه تأويل الثقافات وعرفها بأنها: " هي حركة في الأنثروبولوجيا قامت على الابتعاد عن أطر الشرح البيولوجي ورفض الأفكار المسبقة السوسيولوجية والسيكولوجية. وهي تركز على عمل الرموز في الأفعال التواصلية، وهكذا تصبح الطقوس والاحتفاليات في بؤرة الاهتمام الإثنوغرافي"⁽¹⁾ ، وبالتالي يمكن الإستعانة والتوسل بهذا الطرح باعتبار أن القيم هي جزء

من الثقافة إذن فالتأويل القيمي يركز في اشتغاله على الفعل الإتصالي وهنا يمكن التركيز على أعمال منظري ما بعد الحداثة أمثال الفيلسوف الألماني يورغان هابرماس **Jürgen Habermas** (*) في "نظرية الفعل الاتصالي" وفي مبحث لهذه النظرية سماه بالعالم المعيش ومثالية تأويل سوسيولوجيا الفهم بأن: "تأويل العالم محفز بأسباب براغماتية وتأويل الوضعية محفز بفضل الفاعل الذي يطور مخططه الفعلي (...). كما لمح بأن تأويل الوضعية يرتكز على تحفظات معرفية ومع العلم بأن هناك فاعل في العالم المعيش الذي يتفرع عنه مجموعة من العوالم متفاعلة مع بعضها البعض ألى وهي (عالم موضوعي وذاتي واجتماعي وداخلي) وما بين العالم الموضوعي والذاتي هناك الثقافة التي تنتج لي القيم واللغة التي تنتج لنا الإتصال" (2). وبالتالي تأويل القيم هو تفاعل ما بين العالم الموضوعي والذاتي ونضيف إليه اللغة باعتبارها الحاملة لهذه القيم.

2- التضاد القيمي:

نقصد بالتضاد القيمي وجود تضارب في القيم عبر الفضاء الإعلامي الجديد وهنا نستحضر الفيلسوف الحر كما سمي في الأوساط الأكاديمية الفلسفية فريدريك ويلهام نيتشه F.W.Nietzsche وجود ما يسمى بقلب القيم أي "تحويل القيم" تحول قيم الخير الى شر وقيم الشر الى خير وبالتالي نحن امام فضاء اعلامي اجتماعي لا يميز بين ما هو اصيل وما هو وافد مشكك فيه.

والمفهوم الذي نختص بدراسته، يسائل مسألة من أهم المسائل التي شغلت نيتشه تحليلا ونقدا، تدميرا وإعادة بناء، تشخيصا وبرنامجا في الوقت نفسه، إنها "إشكالية التراتب"، بما هي قضية رئيسية في نسق اهتمامات العقل الحر، لذا احتل التراتب مكانة هامة في المنهج الجينيولوجي، فهو من جهة مصدرا للقيم، ومن جهة أخرى مصدرا لاختلافها.

لقد أراد نيتشه أن يبرز كيف أن صدور القيم متوقف على هذا العنصر التراتبي الذي يقسم العالم بمواضيعه ورموزه إلى تعارضات مختلفة: أدنى، أعلى، شرير، طيب، قبيح، جميل، هذه المقولات في منظور الجينيولوجي ليست رموزا تعبر، بقدر ما هي معان تحيل وتدل، وكل ما يعني وبذل على معنى هو عبارة عن قناع يغلف تأويلات مستبطنة وسابقة، ومن ناحية أخرى ستكون مهمة إعادة تقييم القيم، وبناء التراتب الأصيل، موكلة لفيلسوف المستقبل، المشرع والفنان في الوقت نفسه.

كما يضرب لنا نيتشه مثال حول قيمة الشفقة وبراها بانها إعلان عن التسامح اتجاه الحياة الضعيفة الخالية من القوة والقدرة، وهكذا تكون الشفقة نوعا من الحب للحياة بحيث تكون نصر نهائي للفقراء

والعاجزين والمعدبين⁽³⁾ كما يعتبر نيتشه الشخص المشفق هو معادي كل ما هو فاعل في الحياة فالإنسان الضعيف يتمكن عن طريق الشفقة من نفي الحياة والحط من قيمتها، فهو يستخدم الحياة لينفي الحياة⁽⁴⁾. وإذا كان الناس يعتبرون الشفقة فضيلة (وهي في الأخلاق الأرستقراطية ضعف)، بل أكثر من ذلك اعتبروها مصدرا لكل الفضائل، فلا يمكننا أن ننسى، في المقابل، باي حال من الأحوال، أنها سلبية فلسفة عدمية تجعل من نفي الحياة قاعدة لها⁽⁵⁾.

ومن بين القيم المضادة التي تعرض لها نيتشه هي المسألة الدينية عموما والديانة المسيحية على وجه الخصوص وما يرتبط بها من قيم قد تعلن عن موقف ما من الحياة (...). ويتأكد لدى نيتشه أن سيطرة النظريات الروحانية الخالصة على المجتمعات الإنسانية يتسبب أليا في تحطيم القوى الذهنية للأفراد لأنها تعلمهم كيفية احتقار أجسادهم ونفيها بما هي قيمة، ومن ثمة نحن إزاء برنامج منظم هدفه الأقصى الحط من قيمة الإنسان ذاته من خلال استهداف أهم الأبعاد الحيوية فيه، ونعني بذلك غرائزه⁽⁶⁾.

ومن بين الأعمال التي تعرضت بالنقد لنظرية التراتب القيمي عند نيتشه، بوصفها إيديولوجية الرأسمالية في مرحلتها الإمبريالية، تلك التي يمثلها "جورج لوكاش"، في كتابه "تحطيم العقل"، حيث نظر إلى نيتشه باعتباره مؤسس لاعقلانية الطور الإمبريالي، وفي نفس الخط أيضا يبرز لنا كتاب "على دروب زرادشت" لـ:ستيفان أوديف، الذي أبصر في دعوة نيتشه إلى البناء الاجتماعي التراتبي، نموذج للهروب من النظريات العلمية والحتمية التاريخية، عن طريق التحليل النفسي، والتجميلا لفي، والتأويل الأسطوري للواقع، لتبرير عقيدة التراتب القيمي بين البشر، وما يستتر خلف مراجعة جميع القيم حسب أوديف هو الانحلال الذي أحسه نيتشه للبرجوازية في تلك المرحلة، فكيف ننظر نحن إلى مخلفات الرأسمالية وطغيان العقل الأدوات على تراتبية القيم^(**).

اذن في هذا المقام نطالب كل الساهرين والمستخدمين الى تربية اعلامية قيمية تحفظ مايسمى بالتراث العربي الأصيل الذي هو موجود على هذا الفضاء، وعلى شاكلة نيتشه أصبح هناك قيم مضادة للحياة أي المنظور النيتشوي عالج نمطين مختلفين من القيم الأخلاقية : قيم تعلي من شأن الحياة وتثبيتها، وقيم تنفي الحياة وتحط من مرتبتها. (...)

الأزمة القيمية:

تعرف دائرة معارف العلوم الاجتماعية الأزمة بأنها: " حدوث خلل خطير ومفاجئ في العلاقات بين شيئين"، ويقدم وليم كوانت التعريف التالي للأزمة: " الأزمة هي تلك النقطة الحرجة و اللحظة المناسبة التي يتحدد عندها مصير تطور ما" ويعرفها جونانان روبرت الأزمة بأنها: " مرحلة الذروة في توتر العلاقات في بنية استراتيجية وطنية أو اقليمية أو محلية"⁽⁷⁾.

أشار الدكتور أديب خضور بأن إتاحة التطور التكنولوجي وتطبيقاته المتسارعة في مجال الاتصال للفرد المعاصر أن يبرمج تعرضه، وأن يحدد خياراته، وأن ينتقي. ولم يعد بالتالي محاصرا بوسائل اعلام

وطنية أو اقليمية أو دولية محدودة، أصبح بإمكانه أن ينوع مصادره الإعلامية، ويختارها بدقة. ترتب على ذلك ازدياد مهمة الوصول إلى هذا المتلقي صعوبة وتعقيدا(8).

كذلك مكن هذا التطور القوى المحلية والإقليمية والدولية من أن توجه رسائلها على مدار الساعة، إلى المكان الذي تريد، وفي الوقت الذي تريد، وإلى الجمهور الذي تريد، وبغض النظر على الحدود الجغرافية أو اعتبارات السيادة الوطنية، أو التشريعات القانونية، ترتب على ذلك ضرورة تقديم رسالة إعلامية مدروسة ومناسبة(9).

خلاصة:

وفي الأخير نلاحظ الآن أزمة على مستوى القيم الإعلامية في هذا الفضاء الإعلامي الجديد وبالتالي نتج عن ذلك إشكالية استحالة أخلفة الفضاء الإعلامي الجديد، وبالتالي مباحث نظرية الحرية الإعلامية أعطت بعدا تازيميا للقيم في ظل الإعلام الجديد، فهل يمكن ايجاد حل لهذه المعضلة القيمية التي يستحيل فيها التأطير الأخلاقي والقيمي. والتحكم في انبعاث فكر اعلامي قيمي من خلال هذا الفضاء الإعلامي الجديد.

قائمة المراجع

1. كليفورد غيرتز، تر: محمد بدوي، تأويل الثقافات، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، لبنان، 2009، ص829.
- يورغان هابرماس Jürgen Habermas فيلسوف ألماني و هو من مؤسسي مدرسة فرانكفورت ويعتبر من منظري مابعد الحداثة ولديه عدة أعمال في الفضاء العمومي، وصاحب نظرية نقد العقل الإتصالي.
2. jurgen Habermas, tr : jean louis schlegel, Théorie de l'agir communicationnel(pour une critique de la raison fonctionnaliste), 1ed, edition Fayard , France, 2005, p141.
3. نبيل عبد اللطيف، فلسفة القيم-نماذج نيتشوية-، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص120.
4. جيل دولوز: نيتشه والفلسفة ، ترك اسامة الحاج، ط1، بيروت، 1993، ص 192.
5. Nietzsche.f.le crepuscule des idoles :l'antéchrist, trad.henri albert, mercure de France, France, 1899, p199.
6. نبيل عبد اللطيف، مرجع سابق، ص ص 128-129.
- ** اجتهاد شخصي من خلال قراءة جورج لوكاش وستيفان أودوف.
7. العماري ، عباس رشدي، " إدارة الأزمات في عالم متغير"، ط1، الأهرام للنشر، 1993، ص 13.
8. أديب خضور، الإعلام والأزمات / ط1، المكتبة الإعلامية، دمشق، سوريا، 1999، ص 7.
9. أديب خضور، مرجع سابق، ص52.